رحلة ممتعة

١٠ سنوات فما فوق

رحلة ممتعة

كتابة
دياب عيد

رسوم
حفيظة حجوز

تحرير وإخراج
د. تغريد القدسي
الجمعيّة الكويتية لتقدم الطفولة العربيّة
١٩٩٥

حقوق الطبع محفوظة

للجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية

الطبعة الاولى

الكويت

١٩٩٥

اللجنة الاشرافية لمشروع الكتاب الشهري للطفل :

د. حسن الابراهيم (رئيس اللجنة)
د. ثريد القدسي (منسقة المشروع)
الاستاذ أنور النوري (عضـــــو)
د. فاطمة نذر (عضـــــو)
د. يعقوب الحجي (عضـــــو)

شكر

تشكر الجمعيّة الكويتيّة لتقدّم الطفولة العربيّة

الدكتورة سعاد الصباح التي قامت - مشكورة - بتمويل مشروع الكتاب الشهري للطفل، والذي يهدف إلى نشر مكتبة متكاملة للأطفال والناشئة العرب تتكون من ستين كتاباً سيتم نشرها على مدى خمس سنوات. كما تشكر الجمعية جميع الذين ساهموا بإنجاز هذا الكتاب .

أصغرُ الغزلانِ يطاردُ غسانَ

أمضى غسانُ أسبوعاً من الحيرةِ والترقبِ. تسلمَ مكافأةَ المدرسةِ باعتبارِه أولَ المتفوقينَ، وهوَ الآنَ ينتظرُ هديةَ أهلِه. خطرتْ ببالِهِ الدراجةُ الحديثةُ، أشرطةُ ألعابِ الحاسوبِ، حتى إنه فكَّرَ بقاربٍ مطاطيٍّ صغيرٍ بمجذافَيْنِ. لكنَّ الهديةَ التي فاجأَهُ بها أبوه لم تكن في حُسبانِه. زيارةٌ طويلةٌ الى مزرعةِ بيتِ خالتِهِ نورةَ التي سمعَ عنها كثيراً ولم يَرها من قبلُ. المهمُ في ذلكَ أنه سيقضي مدةَ الزيارةِ معَ "ديمةَ" ابنةِ خالتِه.

خرجَ منَ البيتِ الى الحديقةِ يفكرُ ويفكرُ. الرحلةُ جميلةٌ، وهو لم يقضِ حتى ساعةً واحدةً طوالَ سنواتِه الإحدى عشرةَ في مزرعةٍ من قبلُ. وردتْ الى ذهنِ غسانَ كلُّ النشاطاتِ الممكنةِ: القفزُ والتسلقُ، ومطاردةُ الفراشاتِ، هناكَ النباتاتُ والأشجارُ والحيواناتُ والحشراتُ والهدوءُ... كلُّ ذلك يبدو مشوقاً. إنما المشكلةُ هي وجودُ "ديمةَ". غسانُ لا يسرُّهُ حضورُها، ولا يطيقُ أدبَ حديثِها ولطفَ إصغائِها. كانت دائماً لطيفةً مع الجميعِ، وحين تأتي مع ذويها الى المدينةِ يتعلَّقُ بها الغريبُ والقريبُ. فلا يكادُ غسانُ يسمعُ إلا : "ديمةُ تعالَيْ، ديمةُ اذهبي، أين ديمةُ؟ ما أجملَ ديمةَ! ما ألطفَ ديمةَ!" أما غسانُ فكانَ

وحدَه يهمسُ في قرارةِ نفسه: "ما أسخفَ ديمةَ!" ذات يومٍ جعلتِ الجميعَ يضحكون عليه. كانوا في حديقةِ منزلِ عمِّها قربَ الشاطئ. يومَها كان كلٌّ من غسانَ وديمةَ قد نجحَ الى الصفِّ الثاني. وزارَ الاهلُ جميعاً دارَ العمِّ صالح. جلسوا عصراً في الحديقةِ الوارفةِ الظلال حيث المسطَّحاتُ الخضراءُ و الوروداُ والأزاهيـــرُ. كانَ غســانُ يجلسُ على العشبِ مستنداً الى جذعِ شجرةٍ، يقضمُ بسرورٍ وهناءٍ جزرةً لذيذةً. فجأةً سمع لهاثاً غريباً قربَ رأسهِ تماماً ، وأحسَّ بأنفاسٍ تلفحُ عنقَه فلم يكن منه إلا أن صاحَ بأعلى صوتِه وقفزَ باتجاهِ أبَوَيْه... حين نظرَ الى الكبارِ لم يكنْ بينهم واحدٌ يشاركُه خوفَه أو قلقَه، جميعُهم كانوا يضحَكون... توقفَ عن الجري ونظَر للخلفِ. كانت ديمةُ تعانقُ غزالاً صغيراً جميلاً وتربِّتُ عليه بحنانٍ. أدركَ غسانُ ما حدَثَ: يا لَلمأزقِ! فالذي ظنَّه غسانُ حيواناً مخيفاً كان مجرَّدَ غزالٍ وديعٍ كانت ديمةُ تلاطفُهُ. اقتربَ غسانُ من ديمةَ وقالَ هامساً: "أنتِ مغرورةٌ." هزَّتْ ديمةُ كتِفَيْها باستخفافٍ وقالتْ له: "وأنتَ جبانٌ. لقد هربتَ من ألطفِ الغزلانِ." كان هذا الموقفُ بدايَةَ المشاكَساتِ بينَ غسانَ وديمةَ.

لكلِّ ما سبقَ قرَّرَ غسانُ أن يزورَ مزرعةَ خالتِه نورةَ. اعتبرَ ذلك تحدياً، سيزورُ ديمةَ في بيتِها متناسياً السنواتِ الاربعَ التي شهدَتْ العديدَ من المنافساتِ بينَهما حولَ مَنْ هو الأذكى أو الأكثرُ لطفاً معَ الآخرين.

وهكذا ركبَ غسانُ السيارَةَ مع ابنِ خالتِه حازمٍ شقيقِ ديمةَ الأكبر. وقبل ذلك أمضى ليلتَيْنِ يقلِّبُ صفحاتِ أطلسِ حيواناتِ العالم

كَيْ لا يفاجِئَه أيُّ حيوانٍ في المزرعةِ. ألوفٌ من صُوَرِ الحيواناتِ المصنَّفةِ حسبَ القاراتِ والمناطقِ المناخيةِ. هذه المرة لن يجعلَ الآخرينَ يضحكونَ عليه وستعرفُ ديمةُ مَنْ هو غسانُ. تناولَ الأطلسَ بينما السيارةُ تقطعُ الطريقَ المحاذيَ للبحرِ وغرقَ في صورِ الصفحاتِ الملوَّنةِ. "يا اللهُ كم في الكرةِ الأرضيةِ من حيواناتٍ لا تُحصى، كانَ غسانُ يفكرُ، ذاكَ هو الغزالُ، وتلْكَ هي المَها، وهذا هو الجملُ العربيُّ." لقد ركبَ جملاً ذاتَ مرةٍ. كانَ يتنازَعُه الخوفُ والسُّرورُ على ظهرِ الجملِ، كما أنهُ قد قرأَ مرةً في مجلةِ الأطفالِ عن حمايةِ الحيواناتِ المنقرضةِ، حيواناتٍ ضخمةٍ مخيفةٍ.. لكنها يجبُ أن تبقى من أجلِ توازنِ البيئةِ. تثاءبَ غسانُ وأسندَ رأسَه إلى زجاجِ السيارةِ واستسلَمَ للنومِ. تشابكَتْ أحلامُه بينَ البحرِ والغابةِ، ومن بعيدٍ جاءَهُ صوتُ حازمٍ ابنِ خالتِه: "غسانُ... غسانُ... لقد وَصلْنا."

فتحَ غسانُ عينَيْهِ على واحةٍ خضراءَ ممتدةٍ، تلكَ هي المزرعةُ. مسرحٌ طبيعيٌّ كبيرٌ يستوعبُ كلَّ المغامراتِ التي راودَتْ خيالَه. شقَّتْ عجلاتُ السيارةِ طريقًا تظلِّلُه أشجارٌ دائمةُ الخضرةِ. ثم وقفَتْ أمامَ بناءٍ جميلٍ يتوسطُ المزرعةَ، تلكَ هي خالتُه نورةُ. وذاكَ هو العَمُّ بدرُ زوجُ خالتِه.. وتلكَ أخيرًا ديمةُ، يا اللهُ كم كَبِرَتْ! إنَّها تقفُ باسمةً. لعلَّها تظنُّ أنَّها سوفَ تتفوقُ عليه. قالَ غسانُ في سرِّه: "أنتِ واهمةٌ يا ديمةُ انتظري وسوفَ ترَيْنَ ما يفعلُه غسانُ."

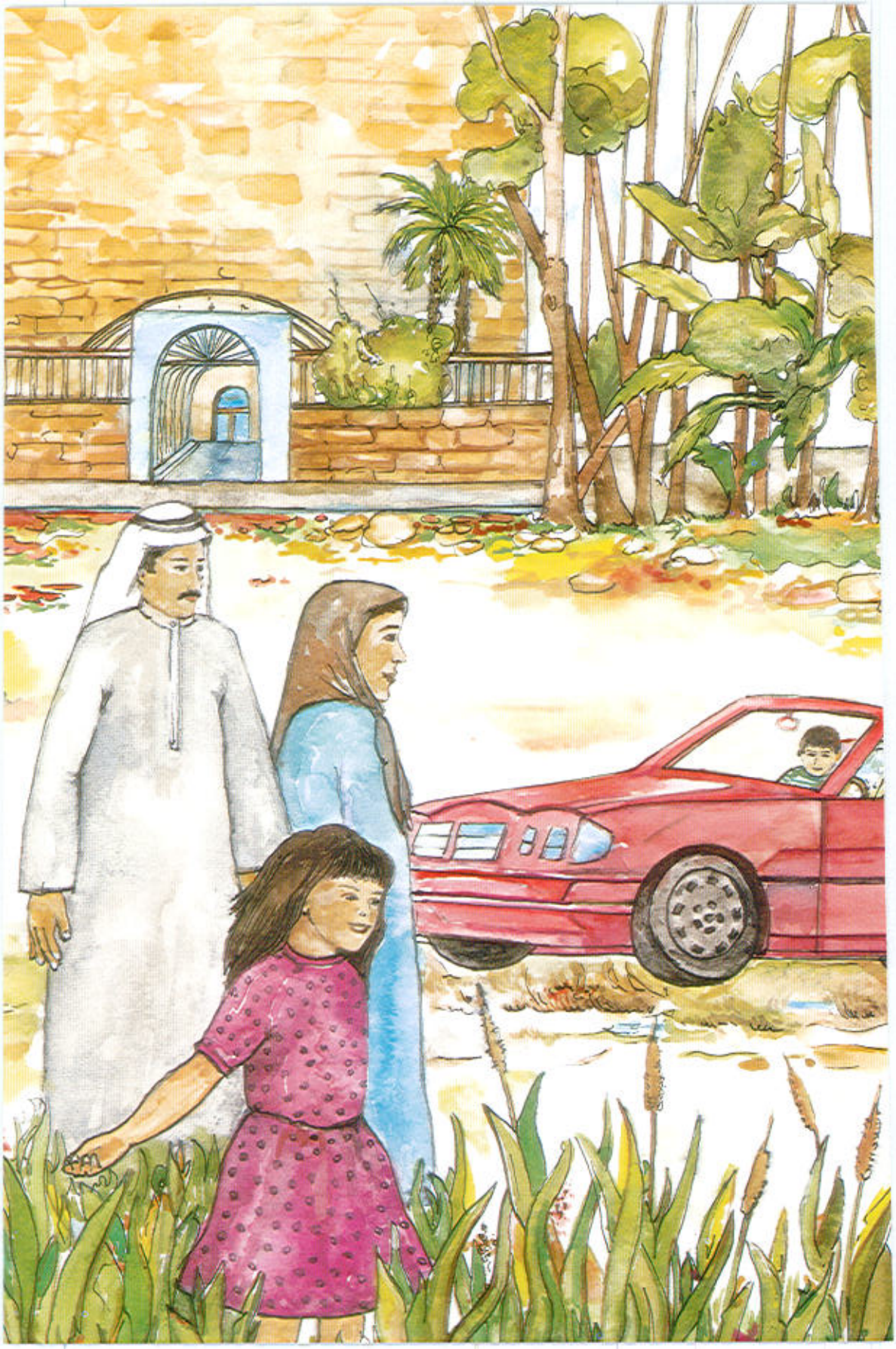

حبسٌ عالٍ في الهواءِ الطلق

قادتْ ديمةُ غسانَ الى غرفةٍ ذاتِ نوافذَ واسعةٍ في واجهةِ الطابقِ العلويِّ.

"ما رأيُكَ؟"

"جميلةٌ ومريحةٌ شكرًا."

سحبتْهُ ديمةُ من يدِهِ وركضتْ فاضطُرَّ لمجاراتِها. هبطا الدرجَ قَفزاً. أدركَ غسانُ أنهُما سيخرُجانِ من البيتِ، لكنَّ صوتَ خالتِهِ كان يلاحقُهما: "لا تتأخَرا... الغداءُ بعدَ ساعةٍ."

توقفَ غسانُ وديمةُ خارجَ البيتِ، نظرتْ اليهِ ديمةُ، قالَ لنفسِهِ: "ها هيَ نظرتُها الحقيقيةُ، نظرةٌ ملؤُها الذكاءُ الماكرُ."

سألتْ ديمةُ: "بِمَ نبدأُ يا غسانُ؟"

أجابَها: "أنا الضيفُ يا ديمةُ."

تابعتْ ديمةُ: "حسنًا، في المزرعةِ نشاطاتٌ كثيرةٌ أنتَ كساكنِ مدينةٍ لا تعرفُ عنها شيئًا. لنبدأ بالحظائرِ. إذا أسرعنا سوفَ ترى عمليةَ حلبٍ صناعيةٍ بواسطة الآلاتِ."

ركضَ الاثنانِ بينَ المسطحاتِ الخضراءِ وعندَما وصلا ارتدى كلٌّ منهما جزمةً نظيفةً ومئزراً أبيضَ ودخلا الحظيرةَ، كلُّ شيءٍ كان أبيضَ

ونظيفًا . الأنابيبُ الموصولةُ بحلماتِ الضروعِ تأخُذ الحليب الطازج الذي يتجمعُ في أوانٍ كبيرةٍ. يمرُّ هذا الحليبُ بمراحلَ عديدةٍ قبلَ أن يُعبَّأَ ويصلَ الى السوقِ طازجًا أو بشكلِ جبنٍ أو لبنٍ وربما شرابٍ محلّىً.

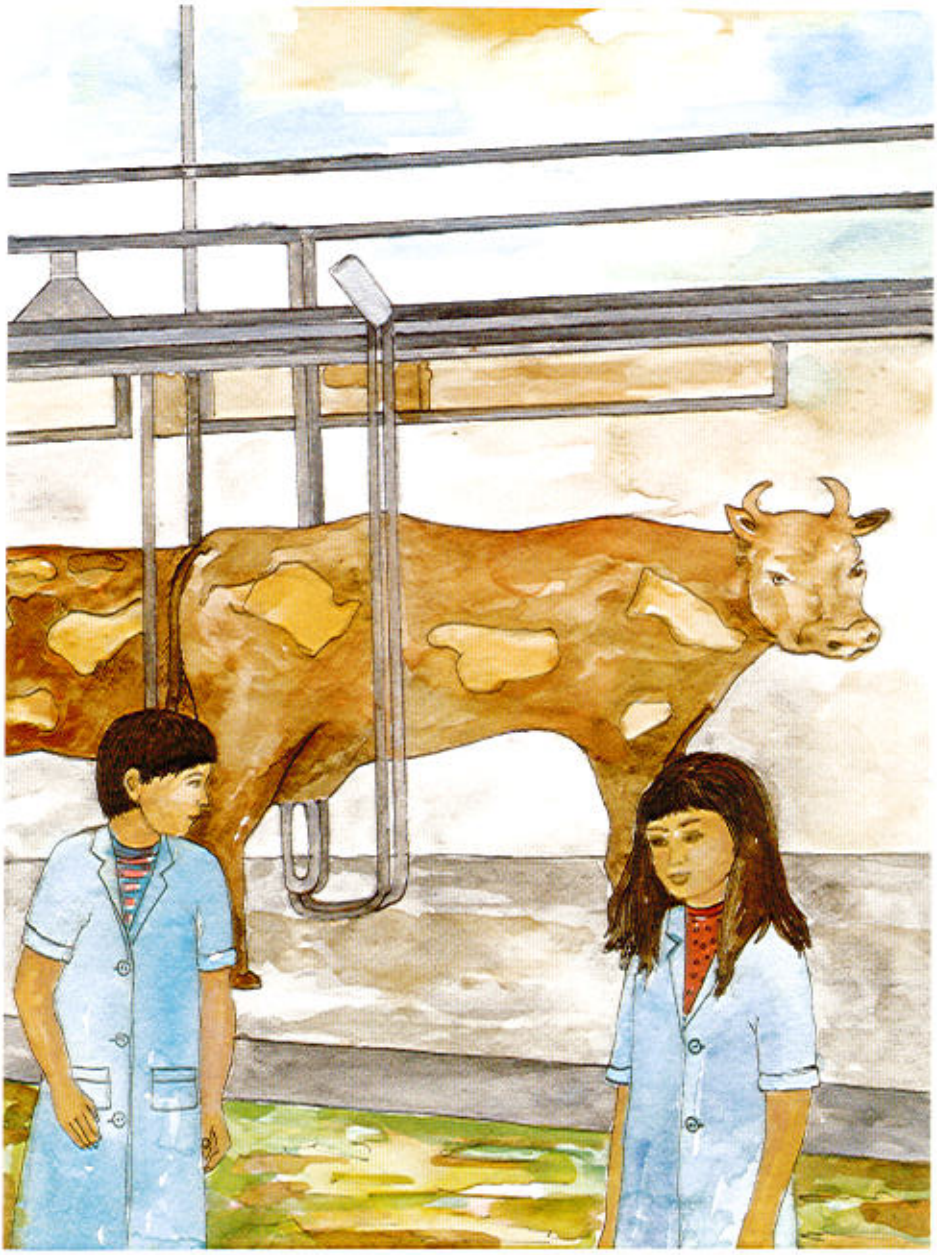

خرجا من منطقةِ الحظائرِ، وتبعَ غسانُ ديمَةَ في دربٍ بينَ الأشجارِ المثمرةِ حتى وصلا الى دوحةٍ تكثرُ فيها الأشجارُ المرتفعةُ ذاتُ الفروعِ الكبيرةِ والأغصانِ المتشعبةِ. الى أحدِ الجذوعِ استندَ سلَّمٌ طويلٌ ينتهي أعلاه الى ما يشبهُ الكوخَ الصغيرَ. قالتْ ديمةُ باعتزازٍ: "هذا كوخي... لنَصْعَدْ." وبدأتْ تصعدُ درجاتِ السلَّمِ الخشبيةَ باقتدارٍ واضحٍ... أما غسانُ فلم يتردَّدْ، لحقَ بها وحينَ نظرَ الى الأسفلِ اكتشفَ العلوَّ الشاهقَ الذي يصعدُ إليه. حينَ غدا في الكوخِ أحسَّ بارتياحٍ غامرٍ. "يا الله!! ما أحلى الدُّنيا". إنه وسطَ الأشجارِ وغصونِها. تتطايرُ من حولِه عصافيرُ وفراشاتٌ ويهبُّ عليه نسيمٌ رطبٌ. كانت ديمةُ ترقبهُ بنظرةٍ أشعرته بإنقباضٍ . وفجأةً تبادرَ لذهنِه "لا بدَّ أنَّ ثمَّةَ ما تدبِّرهُ ديمةُ. فهذا اللُّطفُ المتواصلُ ليسَ من عادتها."

قالت ديمةُ: "المزرعةُ مليئةٌ بالأماكنِ المثيرةِ يا غسانُ . انظرْ ما أجملَ هذا المكانَ. ما رأيُكَ لو نتناولُ غداءَنا هنا بينَ الاغصانِ؟"

وأخيراً بقي غسانُ وحدَهُ في الكوخِ. كانت كلُّ الجهاتِ المفتوحةِ أمامَ عينَيْهِ تطالعُهُ بمشاهدَ مختلفةٍ. تنفَّسَ بارتياحٍ، ديمةُ ذهبتْ لتجلبَ الطعامَ. وبقيَ هُوَ وسطَ هذا العالمِ الأخضرِ. لقد قرأ الكثيرَ من القصصِ المصورةِ ورأى العديدَ من أفلامِ الكارتونِ، وكلُّها كانت تدورُ حولَ الحياةِ في الغاباتِ. لا بدَّ أنه سوفَ يعيشُ هنا مغامراتٍ عديدةٍ. إنَّهُ جائعٌ، تأخرتْ ديمةُ . ربما هي على السلَّمِ الآنَ، نظرَ غسانُ للأسفلِ وفجأةً... "أينَ السلَّمُ؟ السلَّمُ بعيدٌ عن متناولِه. لقد سُحِبَ للأسفلِ، وغسانُ الآنَ محبوسٌ في كوخٍ عالٍ بينَ السماءِ والأرضِ."

نسيَ غسانُ زقزقةَ العصافيرِ، رفيفَ أجنحةِ الفراشاتِ الملوَّنةِ وحتى الاتساعَ الجميلَ من الأشجارِ والمروجِ داخلَ المزرعة، كلُّ ما كانَ في خاطرِهِ هُوَ الموقفُ الصَّعبُ والعسيرُ الذي وجَدَ نفسَهُ فيه. ها هوَ معلَّقٌ بينَ الأشجارِ، لا يستطيعُ النزولَ أو الاستغاثةَ. تبَّخرتْ كلُّ الخواطرِ المثيرةِ، وخيالاتُ المغامرةِ واللَّهوِ، ولم يبقَ الا الضَّعفُ والعجزُ والكثيرُ من النقمةِ والغضبِ.

أخيراً ها هيَ ديمةُ تحملُ طبقًا مغطًى بقماشةٍ نظيفةٍ. وضعتْ ديمةُ الطبقَ جانباً دونَ أن تنظرَ إلى غسانَ ثم أمسكتْ بالسلَّمِ ورفعتهُ، صعدتْ درجةً درجةً وهي تحملُ الطبقَ حتى وصلَتْ. نظرتْ الى غسانَ الذي تجهَّمَ وجهُهُ وسألتْهُ: "هل تأخرتُ يا غسانُ؟"

أجابَها: "لماذا سحبْتِ السلَّمَ بعيداً للأسفلِ؟"

قالتْ ديمةُ بثقةٍ: "خوفًا عليكَ يا غسانُ. خفتُ أن تجرِّبَ النزولَ بمفردِكَ وأنتَ غيرُ معتادٍ على ذلكَ."

قاطَعَها غسانُ: "لماذا لم تُنبِّهيني سلفاً؟"

أجابته: "لم أتذكرْ حتى نزلتُ للأسفلِ. على أيةِ حالٍ، ها هُوَ الطَّعامُ. لنأكُلْ! أنتَ أولُّ ضيفٍ أسمحُ له بالصعودِ إلى كوخي هيّا."

كلُّ البراءةِ كانتْ تُطلُّ من عينَيْ ديمةَ، مَنْ يرها يحسَبْها ملاكًا لطيفًا. لكنَّ غسانَ يعرفُ أنّها سجلَّتْ عليه أوّلَ انتصارٍ وديمةُ تعرفُ رغمَ ابتسامَتِها المجامِلَةِ أنَّ غسانَ يعرفُ ما فعلَتْهُ ولم يُخْدَعْ بها، لقد حَبَسْتْه وتركَتْه في الكوخِ المرتفعِ. على كلِّ العطلةُ طويلةٌ وهما مازالا في اليومِ الاولِ.

جولاتٌ جديدةٌ

عادَ غسانُ وديمةُ للمنزلِ وفي طريقِهما الى الطابقِ العلويِّ وحينَ وصلا الى ردهَةِ الدَّرجِ أشارَتْ ديمةُ الى دَرَجٍ مظلمٍ ومهملٍ قائلةً: "هذا الدرجُ يؤدّي الى السَّقيفَةِ يا غسانُ ، وأنا لا أحبُّها. تعالَ زُرْني في غرفَتي لنتحدَّثَ قبلَ النومِ."

عرضتْ ديمةُ على غسانَ ما كتَبَتْهُ المعلماتُ في دفترِ ذكرياتِها، وأرتْهُ الهدايا التي تلقَّتْها باعتبارِها أولى المتفوِّقاتِ في مدرسَتِها، ثم قالتْ: "إنَّ أهمَّ هديةٍ هي استضافتُك يا غسانُ في المزرعةِ."

نظرَ غسانُ لديمةَ غيرَ مصدقٍ وأضافَ: "هذا هو شعوري بالضَّبْطِ."

كانَ غسانُ في قرارَةِ نفسِه يعرفُ أنَّ ديمةَ تخدَعُه، وهو كذلك. سمِعَ الاثنانِ خشخَشَةً تأتي من الأعلى. أصغَتْ ديمةُ لها بانزعاجٍ ثم قالَتْ: "أنا أخافُ من السَّقيفَةِ التي فوقَنا ، فيها أشياءُ غريبةٌ ، صورٌ قديمةٌ ، ثيابٌ باليةٌ، فيها حتى جمجمةٌ . وكلّما رأيتُ في التلفزيونِ عرضاً يتحدَّثُ عن الاشياءِ المخيفةِ خطرتْ ببالي السقيفَةُ . آآآآخ ." تثاءَبتْ ديمةُ بعمقٍ وأضافَتْ: "لنستَرِحْ الليلةَ ، فغداً أمامَنا نشاطٌ كبيرٌ."

استلقى غسانُ في غرفَتِهِ. شعرَ بتوهُّجِ مصباحٍ كهربيٍّ في واجهةِ البيتِ . الجميعُ ينامونَ لكنَّ المصباحَ يبقى للأمانِ في الخارجِ. تسلَّلَ النومُ الى عينَيْهِ سريعاً ، وقبلَ أن يستغرقَ فيه سمعَ حركةً من الأعلى. من السَّقفِ!! "ربّاهُ من السَّقيفَةِ". أحسَّ غسانُ بأنفاسِهِ تتسارَعُ

وبشَعْرِ رأسِه يقفُ منتصبًا ، وتوالَتْ دقاتُ قلبِه بسرعة. وفجأةً تراقَصَ الضوءُ الخفيفُ المنعكسُ من النافذةِ ثم احتجَبَ تماماً. سمعَ بوضوحٍ انصفاقَ نافذةٍ في الأعلى. كتَمَ غسانُ صرخةً كادَتْ تفلتُ منه . التفتَ الى البابِ لكنَّ الضوءَ عادَ يتسلَّلُ متراقصًا من الخارجِ، يحتجبُ قليلاً ثم يعودُ واصطفاقُ النافذةِ في الأعلى يتناغَمُ مع تراقُصِ النُّورِ . ثمَّ سمعَ غسانُ حركةً في الجوارِ ، ماذا يجري؟ مَنْ يسيرُ أمامَ بابِ غرفتِه؟ ما الذي يتراقَصُ قربَ نافذتِه؟ أسرعَ راكضًا الى بابِ الغرفةِ ، فتحَهُ وخرجَ، وقبلَ أن يطرقَ بابَ غرفةِ ديمةَ أطلَّ وجهُها بابتسامةٍ وديعةٍ جدًا وهيَ تتساءَلُ ببراءةٍ تامةٍ: "غسانُ هلْ... هلْ يقلقُكَ شيءٌ؟"

أجابَها: "لا."

أغلقَ غسانُ البابَ وعادَ الى سريرِه وسدَّ بالوسادةِ عينَيْهِ وأذنَيْه. لقد نجَحتْ ديمةُ ثانيةً. قبلَ أنْ تنقَضيَ الليلةُ الاولى، جعلَتْه يعيشُ حالةَ رعبٍ سخيفةٍ ويظهرُ أمامَها في خوفٍ وعجزٍ واضحَيْنِ.

في الصباحِ الباكرِ صعدَ غسانُ الدرجَ وفتحَ بابَ السقيفةِ. كانت مستودَعًا للمؤونةِ، فيه نافذتانِ متقابلتانِ فُتِحَ من كلٍّ منهما مصراعٌ، وتدلَّتْ من النافذةِ الأماميَّةِ قماشةٌ سوداءُ . كم هي بارعةٌ وذكيةٌ ابنةُ خالتِه ديمةُ . مهّدتْ لكلِّ شيءٍ بالحديثِ عن الرُّعْبِ، ثم أتى نسيمُ الليلِ واصطفقتِ النافذتانِ . وتطايرت القماشةُ فحجبتِ النورَ بين الحينِ والآخرِ.

حينَ هبطَ غسانُ كانَ قد قرَّرَ شيئًا. كانت ديمةُ واقفةً بتأدُّبٍ واضحٍ، بادَلَها ابتساماتٍ واسعةً. وبعدَ الإفطارِ فاجأَ غسانُ

الجميعَ برغبتِه في ملازَمَةِ غرفَتِه... كان هذا ما دبَّرهُ ليُحبِطَ جميعَ ما خطَّطتهُ ديمةُ من مقالبَ. استغرقَ في أطلسِ الحيواناتِ مأخوذاً بتنوُّعِ خَلْقِ اللّهِ من حيواناتٍ وحشرات. وبعدَ الغداءِ عادَ ملازمةَ غرفته. لقد أحسَّ مراراً بخطوات ديمةَ تقتربُ من بابِ غرفته ثم تنسَحِبُ. لقد عرفَ كيفَ يُفشلُ كُلَّ ما دبَّرَتهُ. ضحكَ لنفسه وهو يتربَّعُ على السريرِ مفكراً: "لماذا ننساقُ الى صراعٍ تهيَّأَ له الخصمُ جيّداً؟"

فتحتْ ديمةُ البابَ وسألَتْه: "ما الذي يضحكُكَ ؟"

أجاب: "أهلاً.. أهلاً يا ديمةُ لِمَ أنت غاضبةٌ؟"

فأجابَتْ: " أنا لستُ غاضبةً . أتساءَلُ فقط عن سببِ ضحكِكَ."

قال غسانُ: "تعالَيْ ! تعالَيْ وانظري، هناكَ نوعٌ من السَّمكِ يعيشُ من تنظيفِ جلدِ الحوتِ . إنه يتغذّى على الطفَيْلياتِ التي تنمو عليه."

تساءلَتْ ديمةُ: "وما المضحكُ في ذلك؟"

كان سؤالُها يوحي بالضَيقَ.

قالَ غسانُ ببرودٍ: "السَّمكُ مستفيدٌ والحوتُ مستفيدٌ. مَنْ تظنّينَ الخاسرَ يا ديمةُ؟"

سألَتْ ديمةُ: " مَنْ يا غسانُ؟"

فأجابَ غسانُ: "الطفيليّاتُ . الطفيلياتُ يا بنتَ خالتي العزيزةَ."

انطلقَ غسانُ في ضحكهِ من جديدٍ . كانت ديمةُ تُحرِّكُ قدمَيْها بعصبيَّةٍ . وغسانُ هادئٌ يستمتعُ بانزعاجِها.

أضافَ: "هل تُجيدينَ ألعابَ الحاسوبِ (الكمبيوترِ) يا ديمةُ؟"

أجابت ديمةُ: "كنتُ أجيدُها."

فسألَ غسانُ: "هل عندَكِ في المزرعةِ حاسوبٌ؟"

نظرتْ اليه ديمةُ مجيبةً: "طبعاً. لنذهبْ."

ها هو غسانُ يجرُّ ديمةَ الى معركةٍ قد خطَّطَ لها . إنه بارعٌ جداً في الألعابِ.

قادَتْه ديمةُ الى مبنىً عليهِ لافتةٌ تقول :"إدارةُ المزرعةِ".

هل سيلعبانِ في الإدارةِ؟ تُرى هل لديها أجهزةُ تحكُّمٍ؟ كم ستجدُ نفسَها متخلِّفةً عنه. إنه بارعٌ وخاصةً في ألعابِ السباقِ والتَّصدي للغزاةِ الفضائيين. رآهما حازمٌ الشقيقُ الاكبرُ فقالت له ديمةُ: "نحنُ ذاهبانِ الى غرفةِ الحاسوبِ."

وحين دخلا، كان هناكَ جهازٌ كبيرٌ له شاشةٌ مستقلَّةٌ، وقبلَ أن يقولَ غسانُ شيئاً دخلَ حازمٌ يحملُ أوراقاً وقالَ لأختِه ديمةَ:

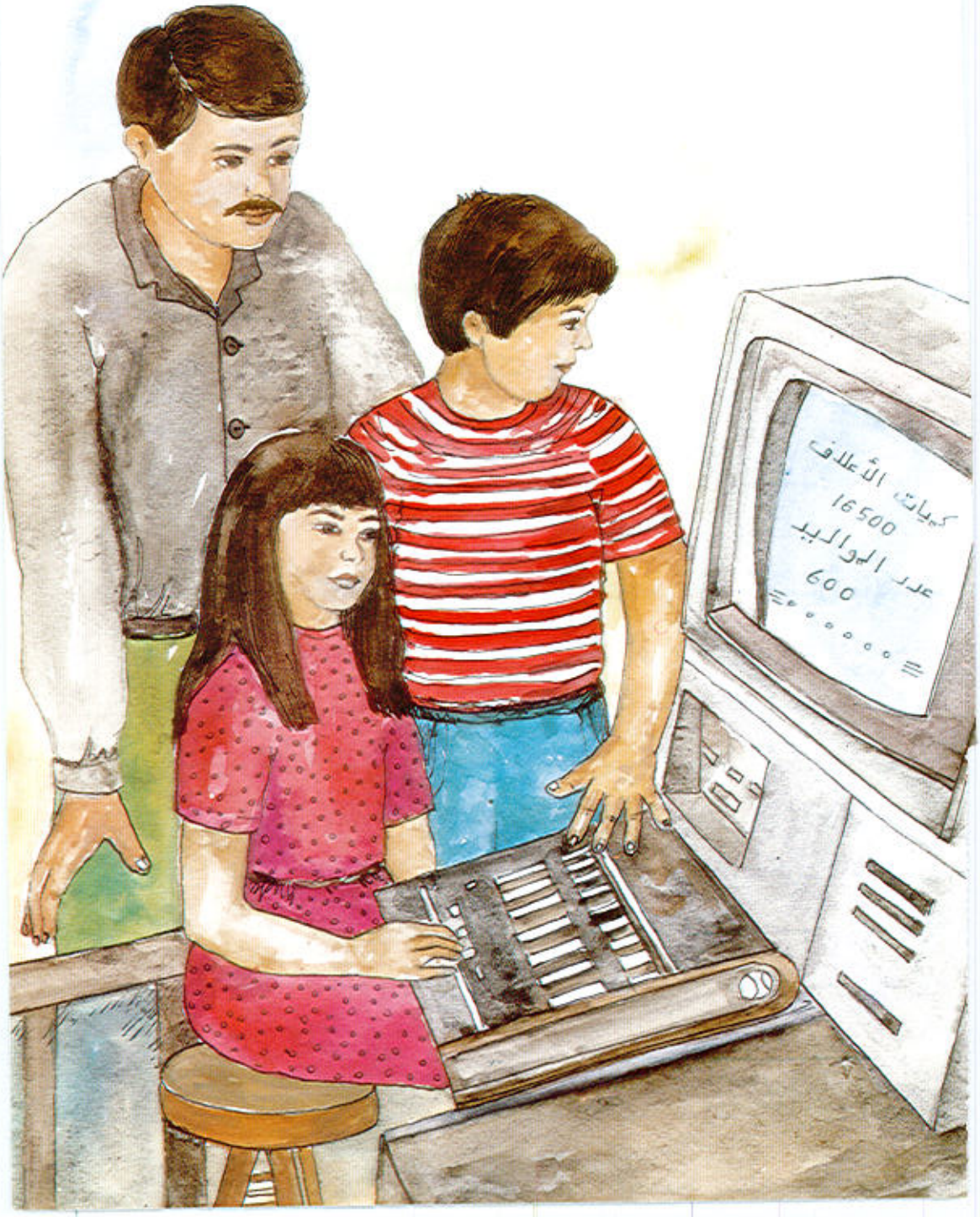
كميات الأعلاف
16500
عدد البوالبد
600

"هل ستدرِّبين غسانَ على إدخالِ المعلوماتِ؟ لقد تعهَّدتْ ديمةُ بإدخالِ البياناتِ لنا في هذه العطلة."

وأمامَ عينَيْ غسانَ بدأتَ ديمةُ بطباعةِ المعلوماتِ الموجودةِ أمامَها . كمياتِ الاعلافِ، عددِ المواليدِ، كميةِ الحليبِ، وكميةِ البيضِ . كانتْ تعملُ بهدوءٍ وثقةٍ ورشاقةٍ. نظرتْ بهدوءٍ وابتسامٍ الى غسانَ فهربَ منها بنظرتِه وأخفى أشرطةَ الألعابِ خلفَ ظهرِه.

عادا صامتَيْن واكتشفا قدومَ أقاربَ للأسرةِ ومعهم "مطرٌ" ولدٌ في الرابعةَ عشرةَ. حاولَ "مطرٌ" أن يسلُكَ سلوكَ الكبارِ الراشدينَ معهُما فضاقَ غسانُ بذلك وابتعدَ عنه بهدوءٍ متجنِّباً المكوثَ في مكانٍ واحدٍ برفقتِه. حتى ديمةُ نفسُها شاركَتْه الابتعادَ متجاهلةً نصائحَ أمِّها بأنْ تعتَني بكلا الضيفَيْن. وكي يتجنَّبا مطراً صعدا مرةً الى الكوخِ الصغيرِ بين أغصانِ الشجرةِ وراقَباهُ يبحثُ عنهما بدهشةٍ وحَيْرَةٍ ثمَّ يعودُ الى المنزلِ خائباً.

وحينَ رأى غسانُ مطراً يجلسُ وحدَه في المنزلِ أحسَّ بالأسفِ وعرضَ عليهِ التسليةَ بألعابِ الحاسوبِ فوافقَ مطرٌ بسرعة. لقد دَهِشَ غسانُ حين رأى ديمةَ تسرعُ وتُحضرُ جهازاً صغيراً مناسباً للألعابِ ثم تستغرقُ معَهما في اللعبِ ناسيةً استعراضَ مهارَتِها في البَرْمَجَةِ. أدركَ غسانُ أن ذلكَ كان لتسجِّلَ عليه انتصاراً، وها هي الآنَ منسجمةٌ باللعبةِ تزاحمُه حيناً وتنافسُ مطراً حيناً آخرَ. والضحكاتُ تندفعُ من الثلاثةِ. حينَ ودعَ الاثنانِ مطراً وأسرَته اعترفَ غسانُ بأنانيَتِه قائلاً: "لقد أهمَلْتُه عن قصدٍ. لم يعجبْني أن يحظى غيري بالاهتمامِ. الحقُّ عليَّ."

أجابتْ ديمةُ: "لا يا غسانُ. الحقُّ عليَّ أنا. إنَّه ضيفي مثلَما أنت ضيفي ولم يكنْ صحيحاً أن أُهمِلَه أو أُهمِلَك."

كان وجودُ مطرٍ قد أرسى بدايةَ هدنةٍ بينَ الاثنينِ.

بعدَ أن صعدَ غسانُ الى غرفتِه لينامَ سألتْ الخالةُ نورةُ ابنَتَها ديمةَ:

"هل يقضي غسانُ وقتاً طيباً؟ هل تجوَّلَ في أنحاءِ المزرعةِ كلِّها؟"

أجابتْ ديمةُ: "لم نَزُرْ كلَّ أقسامِ المزرعةِ بعدُ . وأظنُّه بدأَ يستَمتِعُ بالإقامةِ مَعنا."

هدنة

اعتزمَتْ ديمةُ أن تُنهيَ المنافَسةَ بينَها وبينَ غسانَ واستَلْقَتْ في سريرِها تُخَطِّطُ للغد. داعبَ النعاسُ أجفانَها واستَسْلَمتْ للنومِ وفجأةً – وتحتَ رأسِها بـ سرة – ارتفعتْ ضجةٌ شديدةٌ وبدأتْ حركةٌ مكتومةٌ تحتَ الوسادةِ. صرخَتْ من الرُّعبِ والمفاجأةِ وقفَزتْ خارجَ السريرِ ثمَّ وقفتْ لاهثةً مترقِّبةً، لكنَّ شيئًا لم يحدُثْ. اقتَربتْ بحذَرٍ ومدَّت يدَها للوسادَةِ وفاجَأتْها الضجَّةُ ثانيةً. ابتسمتْ رغماً عنها. كانَ هناكَ سيارتانِ صغيرتانِ تعملانِ بالتَّحكُّمِ عن بُعدٍ. "أحسنتَ يا غسانُ. أحسنتَ. هذه نقطةٌ لكَ. من الممتعِ أن يكونَ الخصْمُ ماهراً في اللعبِ." ألقتْ بالسيارتَيْنِ جانباً ثم استلقَتْ من جديدٍ. عاوَدَ النعاسُ ديمةَ وغفَتْ لكنَّها قفزتْ من جديدٍ. فتَحْتَ قدمَيْها كانت سيارةٌ أخرى تتحركُ بقوةٍ. قالت في نفسِها: "حسناً يا غسانُ، إنه يومُك."

وفي الغدِ قادَتْه "في فسحةٍ" الى "ساحةٍ" منبسطةٍ خضراءَ ولعبا بمضربَيْنِ وكرةٍ اسفنجيةٍ مطولاً. كانا يتبادلانِ الكرةَ والاتهاماتِ والتحدِّياتِ ثم يسقُطانِ على المرجِ الأخضرِ ضاحكَيْنِ لاهثَيْنِ متعبَيْنِ ينضَحانِ عرقاً. حدَّقَ غسانُ في السماءِ الزرقاءِ الصافيةِ قائلاً:

"الحياةُ في المزرعةِ رائعةٌ يا ديمةُ."

تســاءلتْ ديمةُ: "صحيحٌ؟ والعيشُ في المدينةِ رائعٌ أيضاً يا غسانُ."

فأجابَ غسانُ: " نحنُ نفتقِدُ خَضرةَ المزرعةِ وهدوءَها."

تدخلتْ ديمةُ: "أمّا أنا فأحبُّ أسواقَ المدينةِ وملاعِبَها ومطاعِمَها يا غسانُ."

ضحكَ غسانُ قائلاً: "تعالَيْ نتبادَلُ."

أجابت ديمةُ بحزنٍ: "لن يقبلَ أهلُنا بذلكَ. فكلٌّ منَّا يعجِبُه ما ينقُصُه في حياتِه، هيّا الحَقْني!"

أسرعَ غسانُ وديمةُ راكضَيْنِ في ممراتٍ عشبيَّةٍ رمليَّةٍ ومبلَّطةٍ

حتى وصلا الى ميدانٍ صغيرٍ توزَّعتْ فيه عدةُ أفراسٍ وأمْهارٍ. وحينَ سمعَ مُشْرفُ الحظيرةِ أنَّ رفيقَ ديمةَ هو ابنُ خالَتِها غسانُ ضحكَ وأشارَ الى مهرٍ أبيضَ متسائلاً: "لذلك طلبتِ أن يُسمَّى مهْرُكِ غسانَ. على اسمِ ابنِ خالتِك إذنْ!"

كانت هذه هي المفاجأةُ. أجملُ الأمهارِ وأكثرُها نشاطاً على اسمِ غسانَ.

سألَ غسانُ: "إنهُ مهرٌ أصيلٌ ، من نسبٍ أصيلٍ أليسَ كذلكَ؟

سألتْ ديمةُ: "أتعرِفُ عن الخيلِ شيئاً يا غسانُ؟"

فأجابَها غسانُ: "في المدينةِ ملاعبُ ونوادٍ يا ديمةُ، عمّي يحبُّ الخيلَ ويربّي ثلاثةً منها، واحدٌ صقلاويٌّ أصيلٌ."

صفَّرَ المشرفُ بدهشةٍ واستغرابٍ: "صقلاويٌ يا غسانُ؟ عمُّكَ عندَه صقلاويٌّ؟"

أجابَ غسانُ: "نعم وهو أغبرُ اللَّونِ."

التفتَ المشرفُ الى ديمةَ مضيفاً: "الجيادُ العربيةُ الأصيلةُ يا ديمةُ معروفةٌ ومنسوبَةٌ. منها الكحيلَةُ والصقلاويُّ والمعنقيُّ وغيرُها من السلالاتِ الشهيرةِ."

وبينَما كانَ الثلاثةُ يرقُبون الميدانَ النابِضَ بالجمالِ والنشاطِ قالَ غسانُ: "عندي يا ديمةُ كتابٌ صغيرٌ مصوَّرٌ عن الخيلِ والإبلِ العربيةِ سأُهديكِ إيّاهُ."

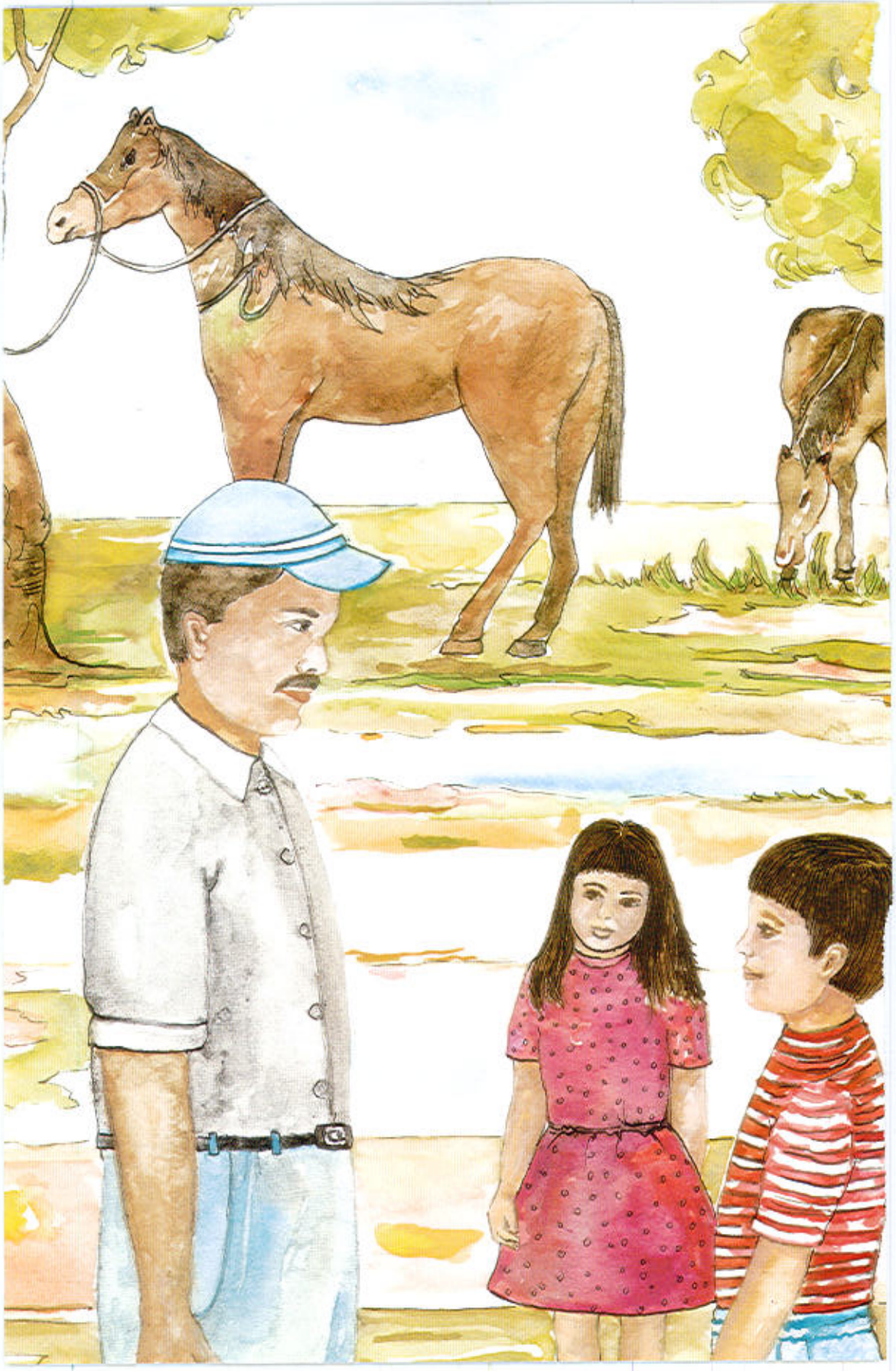

الشبعُ والمطرُ!

أكثرُ ما أعجبَ غسانَ في المزرعةِ كانَ نباتاتِ البيتِ البلاستيكيِّ. رأى غسانُ الخيارَ الأخضرَ اللامعَ يتدلّى تحتَ سقفِ الدفيئةِ، وفي بيتٍ آخرَ رأى الكوسا الصغيرةَ اللامعةَ. كما أنه سمعَ من حازمٍ ابنِ خالتِه درساً عن الزراعةِ المحميةِ. وشاركت ديمةُ في الشرحِ خاصّةً عندما جرى الحديثُ عن وسائلِ الريِّ الحديثةِ. أحدُ البيوتِ كان يُروى بالتنقيطِ والآخرُ بالرذاذِ. بعد توقُّفِ ريِّ الرذاذِ بدتِ النباتاتُ أكثرَ خضرةً وتألُّقاً. "يا لها من حياةٍ جميلةٍ!" كلُّ ما في المزرعةِ أعجبَ غسانَ. ليس فيها الا الجميلُ والممتعُ.

وحينَ نقلَ غسانُ إحساسَه هذا الى حازمٍ ضحكَ الشابُّ وقالَ: "ما تراهُ من جمالٍ يا غسانُ سببُه أنَّكَ غريبٌ عن المزرعةِ وعن حياتِها... هل تظنُّ المعيشةَ هنا دائماً نزهاتٍ وتمتُّعاً بالمناظرِ الجميلةِ؟"

سألَ غسانُ مندهشاً: "وما الذي تفعلُه ديمةُ غيرَ ذلكَ؟"

فأجابَ حازمٌ: "تستطيعُ ديمةُ أن تجيبَك يا غسانُ، أنا سأنشغلُ عنكما الآنَ باستقبالِ الطبيبِ البيطريِّ."

ابتعَدَ حازمٌ تاركاً الطفلَيْنِ يسيرانِ في أحدِ ممراتِ المزرعةِ.

كان غسانُ لا يزالُ ينتظرُ جواباً، وحينَ جلسَ مع ديمةَ على العشبِ الأخضرِ قالَ لها:

"أنا لا أزالُ مقتنعاً بأن حياةَ المزرعةِ أجملُ من حياةِ المدينةِ."

أضافتْ ديمةُ: "كلٌّ من الحياتَيْنِ لها ما يميِّزُها، اسألْني أنا، لو عشتَ مثليَ هنا لَمَلَلْتَ."

وعلى مدى أيامٍ سادَ الوئامُ بين ديمةَ وغسانَ. تجولا في كلِّ مكانٍ حتى غدا غسانُ يعرفُ الحقولَ والحظائرَ والمروجَ والحدائقَ والبساتينَ. ولوَّحتِ الشمسُ وجهَه كما تحسَّنت صحَّتُه وغدا يأكلُ بشهيَّةٍ. اقتربَ موعدُ قدومِ أبيهِ وأمِّه لاصطحابِه في العودةِ، سيُمضيانِ يومَيْ الخميسِ والجمعةِ ثمَّ ينطلقون في الصباحِ الباكرِ يومَ السبتِ. أما الخالةُ نورةُ فانفردَتْ بغسانَ وقالت له بمودَّةٍ: "ما ظننْتُ أنكَ وديمةَ سوف تتَّفقانِ يا غسانُ. ديمةُ كانت تخشى ألاَّ ترتاحَ في المزرعةِ فتبدأ بالشكوى."

أجابَها غسانُ: "لقد أحبَبْتُ حياتَكُمْ هنا يا خالَتي."

ضمَّته الخالةُ نورةُ إليها وقالَتْ: "ونحنُ أحبَبْناك يا عينَ خالَتِكَ، تستطيعُ الآنَ أنْ تطلبَ من أهلِكَ اصطحابَكَ إلينا في كلِّ عطلةٍ."

أجابَ غسانُ بحماسٍ: "سأفعلُ بكلِّ تأكيدٍ."

وهنا سألَتْهُ الخالةُ: "كأنني أحْسَسْتُ بديمةَ تفكِّرُ قبلَ وصولِكَ ببعضِ المقالبِ والمكائدِ، لعلَّها لم تفعلْ شيئًا من هذا؟"

أجابَ غسانُ مبتسمًا: "وهل تحلو الحياةُ دونَ ذلك يا خالَتي؟"

أدركتْ نورةُ أن ابنَتَها وابنَ اختِها قد توصَّلا الى تفاهُمٍ بعدَ أن أبدى كلٌّ منهُما براعتَه تجاهَ الآخرِ.

وصلَ أبو غسانَ وأمُّه واحتفى بهما الجميعُ. لاحظتْ أمُّ غسانَ بسرورٍ مدى انسجامِ غسانَ معَ حياةِ المزرعةِ، كانت تعرفُ أنَّه لا يرتاحُ الى ابنةِ خالتِه ديمةَ ومع ذلك فها هُوَ وإيّاها لا يفترقانِ. بل حينَ عبَّرتْ عن إمكانيةِ عودَتِهم يومَ الجمعةِ كانَ غسانُ أوَّل من اعترضَ مطالبًا بالذهابِ يومَ السبتِ.

انساقَ أبو غسانَ مع ابنِه الذي اتَّخذَ دورَ الدليلِ وهو يشدُّ يدَ أبيه مُشرِئرًا دونَ توقُّفٍ شارحًا له ما بقيَ في ذاكرَتِه من مختلفِ حياةِ المزرعةِ. كانَ الواضحُ أنه قدِ اكتسبَ الكثيرَ في هذه العطلةِ، بل لقد نضجَ أكثرَ خلالَ فترةٍ وجيزةٍ. وفي المساءِ سألتْ ديمةُ غسانَ:

"غسانُ... أتعرفُ ما معنى كلمةِ ديمةَ؟"

أجابَ غسانُ: "لا . أعرفُ معنى اسمي."

فسألتْ ديمةُ: "وما معنى اسمِكَ؟ ماذا يعني غسانُ؟"

قال غسانُ باعتزازٍ: "في المعجمِ غسانُ اسم نبعِ ماء، وكان هناكَ ملوكٌ من غسانَ."

نظرتْ ديمةُ إليهِ وأجابَتْ: "الديمةُ هي المطرُ المتواصلُ الذي هو حياةٌ للناسِ والأرضِ والينابيعِ، فلا يجري النبعُ دونَ قطراتِها."

عبَس غسانُ أوَّل الأمرِ. لكنهُ رأى الجميعَ يضحكونَ لبراعَةِ ديمةَ، فضحكَ معَهُم. لم يجعلْ من حبِّ ديمةَ لاستعراضِ شطارَتِها سببًا لانزعاجٍ أو ردَّةِ فعلٍ غاضبةٍ. فجأةً أدركَ أنه تعلَّمَ الكثيرَ.

رحلةٌ فضائيةٌ

تجمَّعت الاسرتانِ في البيتِ. الطعامُ في الحديقةِ، رائحةُ الشِّواءِ تسيِّلُ اللعابَ، وخيراتُ المزرعةِ الطازجةُ تزيِّنُ المائدةَ والجميعُ في حالةِ استرخاءٍ واستمتاعٍ. وحدَهما غسانُ وديمةُ لا يعرفانِ الهدوءَ. كان الوقتُ يهربُ منهُما مسرعًا، فكأنَّهما لم يعرِفا اللهوَ طيلةَ الزيارةِ . ركضا هنا وهناكَ، وحتى الى حظيرةِ الخيولِ البعيدةِ. وعندَ المساءِ اجتمعتِ الأسرتانِ حولَ حَدَثٍ هامٍ كانت شاشةُ التلفازِ تنقلُه لهم. كان هناكَ رائدُ فضاءٍ عربيٌّ يحلِّقُ في سفينةٍ فضائيةٍ مع روادٍ آخرينَ. تابعَ الجميعُ باهتمامٍ كلَّ ما يدورُ من كلامٍ واتصالاتٍ وما تبثُّه السفينةُ من صُوَرٍ للأرضِ والغيومِ والمحيطاتِ. كانَ كلُّ شيءٍ رائعًا. وحين انتهى الحدثُ الهامُّ أطفأوا الجهازَ ليتحدَّثوا عن الفضاءِ والتحليقِ والعلومِ. انتبهَ حازمٌ الى استغراقِ أختهِ ديمةَ وابنِ خالتِه غسانَ في متابعةِ الحَدَثِ.

سألَ حازم غسانَ:"هل تتمنّى أن تكونَ رائدَ فضاءٍ يا غسانُ؟"

ضحكَ غسانُ. هذا مجردُ حلمٍ أو خيالٍ وهو لا يُريدُ أن يتحدَّثَ عن خيالاتِه وأحلامِه. أما ديمةُ فكانَ عندَها ما تقولُه كالعادةِ.

أضافت: "حين نكبَرُ أنا وغسانُ سوفَ يختلفُ الامرُ."

قالَ أبو غسانَ: "حتمًا، ستصبحُ السفنُ أحدثَ وأرقى."
فأكملتْ ديمةُ: "ما قصدتُ هذا يا عمي أبا غسانَ. قصدتُ شيئا آخرَ، مَنْ يدري؟ حينَ نكبَرُ قد تنطلقُ سفينَتُنا بإذنِ اللهِ من أرضِنا، ومِنْ صُنْعِنا!"

سألَ أبوها: "وتريدينَ أن تكوني على متنِها يا ديمةُ؟"

فأجابتْهُ: "لِمَ لا يا أبي."

أضافَ غسانُ: "لِمَ لا يا عمّي ، ستكونُ ديمةُ على متنِها رائدةَ فضاءٍ. الأيامُ أمامَنا والعلمُ مفتوحٌ ونحنُ سنصلُ الى ذلك المستوى بإذنِ اللهِ."

لاقى كلامُ غسانَ استحسانًا من الجميعِ، حتى ديمةُ نفسُها لم تكنْ تصدِّقُ أن يهادِنَها غسانُ الى هذه الدرجةِ.

سألَتْه: "وأنتَ يا غسانُ ماذا ستفعلُ يومَها؟"

نظرَ غسانُ إليها وأجابَ: "حينَ تحلّقينَ في الفضاءِ يا ديمةُ ربَّما أكونُ مشغولاً."

جاءَه أكثرُ من سؤالٍ: "بماذا؟"

أجاب: "بينما أجلسُ في المركزِ الفضائيِّ وأصابِعي على لوحةِ التحكُّمِ ، سأكونُ مشغولاً بالتفكيرِ، هل أعيدُ السفينةَ الى الأرضِ أم أتركُها تتيهُ في الفضاءِ الى الأبدِ؟!!"

ضحكَ الجميعُ، حتى ديمةُ نفسُها قهقَهَتْ مطوَّلاً بحيثُ دمعتْ عيناها وهزَّتْ له رأسَها متوعِدَةً.

وفي الصباحِ كانَ على غسانَ أن يودِّعَ الجميعَ حتى ديمةَ. وبينَما كانتْ السيارةُ تَشُقُّ الطريقَ كان غسانُ يفكّرُ: "يا اللهُ كم الفارقُ بينَ ساعةِ القدومِ وساعةِ الذهابِ؟! جاء الى المزرعةِ ناقمًا وها هو يغادِرُها آسفًا. كم كانت ممتعةً هذه العطلةُ وحافلةً بالنشاطِ والمشاكَسَةِ. كم هو ممتعٌ أن يجدَ المرءُ صديقًا يختَصِمُ معه اليومَ ويصالِحُه في الغدِ؟! لقد كانت بحقٍّ "رحلةً ممتعةً."

الكاتب

دياب عيد

* من مواليد دمشق ١٩٤٤.
* حاصل على بكالوريوس في الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق عام ١٩٦٩.
* يعمل منذ عام ١٩٦٣ في الإذاعة والتلفزيون السوريين.
* كتب عدة مسلسلات درامية تلفزيونية تاريخية.
* حازت روايته الأولى " سر الرمح المنقوش" على الجائزة الأولى لثقافة الطفل من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الأليكسو) عام ١٩٨٥.
* صدرت له عدة كتب للفتيان.

الرسامة

حفيظة حجوز

* بكالوريوس رسم وتصوير .. جامعة دمشق.
* شاركت في عدة معارض في دمشق، حلب، الجزائر و تونس.
* استحوذت وزارة السياحة والثقافة على بعض أعمالها.
* عضو في نقابة الفنون الجميلة بدمشق.
* تعمل حاليا مدرسة في الكويت